ملاحظات على معجم أدباء الأطباء

بقلم الاستاذ صالح جواد الطعمة

كانت فكرة تأليف كتاب يبحث عن أدباء من الأطباء تدور في مخيلة الاستاذ محمد الخليلي وهو « سائر في طريق دراسته الطبية » منذ أمد ليس بالقريب ... فمرت الأيام سراعاً والشيخ يدأب لتحقيق فكرته ، ويبحث في الكتب التي روّت بعض غليله ، لأجل ان يظهر ما دار في مخيلته الى عالم الوجود أراد ذلك فقال ما أراد بعزمه وجهده ، وهكذا زود الشيخ المكتبة العربية بكتاب لا يمكن الاستغناء عنه وإن هو لم يجمع الأدباء الأطباء ، بل ضم بين دفتيه أدباء كثاراً أطباء .. وصدر هذا السفر الثمين منذ أشهر عديدة وهو الأول من نوعه كما أشار الى هذا المقدم والمؤلف في « التقدمة » « والكلمة » وكنت قد سمعت عن صدوره في الصحف وودت ان أطلع عليه قبل هذا الحين !

ومن حسن الصدف ان يقع البصر عليه في احدى المكتبات في الأيام الماضية ؛ فأقبلت على مطالعته بشغف ورغبة لأنه الاول من نوعه .

وقد صدّر الاستاذ جعفر الخليلي الكتاب بتقدمة قيمة له بين فيها أهمية هذا المؤلف ومتاعب الشيخ الذي بذلها لأجله مع قلة المصادر التي اعتمد عليها .

وتلت التقدمة « كلمة المؤلف » الذي أشار فيها الى فكرته تلك ، وشبه الطبيب بالشاعر في صفات استنتجها ولخصها في تلك الكلمة منها « ... الطبيب إذن طبيب أفراد والشاعر طبيب أمة » ولا ندري كيف استطاع ان يعد الطبيب طبيباً لأفراد ، إذ أن الطبيب باستطاعته ان يكون طبيباً للبشر ولكن الشاعر لا يمكن ان يكون طبيباً للبشر بل لأمته حسب التي تتكلم بلغته .

وقد اقتصر في المقارنة على الطبيب والشاعر ، غير ان اسم الكتاب معجم أدباء الأطباء ويبدو ان الشيخ اعتبر الشاعر اديباً والأديب شاعراً وهذا لا يجوز .

وقدم — في تلك الكلمة ايضاً — شكوى الى القراء «لقلة المظان والمصادر التي عثر عليها » وقبيل انتهائه من الكلمة قال (ليس من الضروري ان يجد القاريء في هذا الكتاب شعراً أو أثراً أدبياً لكل طبيب ذكر فيه فمن ظفرت له بشعر أوردته في ترجمته ومن ظفرت له بأثر أدبي ذكرته له كذلك واكتفيت في بعض الأحيان بما ورد في تاريخ بعض الأطباء انه كان اديباً او كان يتأدب او كان يتكسب بالادب فعددت هؤلاء في عداد ادباء الأطباء كما تقتضيه مراعاة الدقة والامانة في البحث والتنقيب طالباً من فضلاء القراء والناقدين والبحاثة من المؤرخين ان يكملوا هذا النقص بما توفر لديهم من بعض المعلومات عن هؤلاء »

إذن من هذه العبارة تعرف — قارئي الكريم — انه عد المتأدب اومن كان يتكسب بالادب من الأطباء اديباً ولكن

جميع الامور ؛ وعلينا أن نتصور وندرك ان وراء الغلاف ملوراءه لاسيما في مثل هذه الظروف ، فالوقوف عند حدّه قد يضيع علينا اشياء كثيرة ، وقد لا يوصلنا لتحقيق المرام .

أنا لا انكر يا صاحبي ما للغلاف من قيمة ، كما لا انكر ايضا ما للغلاف من أهمية في جعل كل شيء مقبولا من قبل الآخرين من بني الانسان أو الحيوان ، ولكنني انكر المغالاة في ذلك والخروج به الى حد غير معقول ، بحيث ينصرف الفرد الى الاهتمام به اكثر من اللباب ، أو بالأحرى دون ان يهتم باللباب ؛ فيضيع الزمن ، ونحن لازلنا بقارعة الطريق في . وقت يجب أن نعد فيه العدّة لنلتحق بالركب .

وما اجمل كلمة المرحوم جبران في هذا الصدد حيث يقول :

« ليست الحياة بسطوحها بل بخفاياها ، ولا الناس بوجوههم بل بقلوبهم » . ورحم الله شاعرنا حيث يقول في قصيدته :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه اسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

الى ان يقول :

فما عظم الرجال لهم بفخر ... ولكن فخرهم كرم وخير

أبعد الله عنا هذا الداء ، وهدانا طريق الصواب . ؟

بغداد — الرستمية . جمال مهدي الهنداوي

لم خلا معجمه من حنين بن اسحاق الطبيب الأديب الذي « كان فصيحاً في اللسان العربي بارعاً شاعراً خطيباً لسناً » وقد ذكر فيه عن ابنه اسحاق ؟!

ولم لم يذكر [سنان بن ثابت] الذي بنى (البيمارستان المقتدري) و (بيمارستان السيدة) وهو الرئيس الأول للأطباء وصاحب تلك الرسالة التي بين فيها [الفرق بين المترسل والشاعر] ؟؟

لا ينكر ان المؤلف الشيخ قدم خدمة الى الادب والطب يجب ان تذكر فيشكر على ذلك ، اذ انه في كتابه هذا احيا من كان وما كان مندرساً ولكنه من جهة اخرى اجحف بحقوق بعض الأطباء الادباء الذين لم يذكرهم في كتابه لا سيما الدكتور داود الچلبي العضو في المجمع العربي بدمشق وفي مجمع فؤاد الأول للغة العربية خلفاً المرحوم الكرملي والعضو في لجنة التأليف والترجمة والنشر العراقية وصاحب كتاب (مخطوطات الموصل) و (الآثار الآرامية في العامية الموصلية) ومترجم [معجم اصطلاحات الأمراض الجلدية] الذي طلب مجمع فؤاد الأول نشره وطلبته ايضاً لجنة التأليف والترجمة في العراق ويعد هو من أشهر الأطباء في العراق بل في البلاد العربية وله مؤلفات في التركية منها (اصلاح حروفه دائر) وإنني مستعد لتزويد الشيخ بنبذة موجزة عن حياة الدكتور الچلبي المتخرج في الكلية الطبية العسكرية باستانبول .

ولي بعض الملاحظات ـ كقاريء طلب المؤلف منه الاشارة اليها ـ على بعض ما ورد في الكتاب أذكرها فيما يلي :

جاء في معجم الشيخ ما يلي (١) « ... كتب ثابت كتاب التأريخ المشهور في الآفاق الذي ما كتب في تاريخ اكثر مما كتب هو فيه وذلك من سنة نيف وتسعين ومائتين الى حين وفاته في شهور سنة ٣٦٣ وعليه ذيل لابن أخته هلال بن المحسن » قال ابن القفطي في كتابه (٢) « قال هلال بن المحسن ابن اخته وفي ليلة الأربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وستين وثلثمائه توفي ثابت بن سنان صاحب التاريخ »

وقد ذكر الشيخ وفاته في هذا التاريخ ايضاً ، غير أننا لم ندر على اي المصادر اعتمد بذكر وفاته في شهور سنة ٣٦٣هـ ومما لا شك فيه ان وفاته في السنة التي ذكرها هلال ـ اقصد ٣٦٥ ـ الذي يعد خير مصدر يعتمد عليه هي الصحيحة .

وقد لاحظنا في الكتاب نصوصاً من العبارات ليست لهغير انه لم يشر اليها ، منها في ص ٩٦ قال :

[جرجيس الانطاكي الفيلسوف نزيل القاهرة في مصر يزعم انه قرأ على علماء بلده واستوطن مصر وطب بها وادركه أمية ابو الصلت المغربي بمصر]

وهذه هي نص العبارة الموجودة في كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) وكان لزاماً على الناقل ان يشير الى مثل هذه العبارات والا فيعاب على ذلك ويتهم بما لا يستحق الذكر في هذا المقام .

وورد في ترجمة ابن سينا (٣) « وقد كانت وفاته ـ يقصد ابن سينا ـ في همدان وبها دفن وقبره معروف حتى اليوم . »

ان مكان دفنه لما يزل مجهولا ومشكوكا فيه ، فهناك روايات مختلفات في موضع الدفن فمنهم من يقول دفن بهمدان والآخر باصفهان ويزعم بعض الاوربيين انه دفن بالمغرب وغيرها من الاقاويل (٤) فليس من الجواز ان نعد همدان موضع دفنه وقد اختلفت الروايات عليه .

وقد اطنب الشيخ في الكلام عن ابن سينا وذكر نبذاً ليست بالقليلة من شعره غير انه لم يتطرق الى نثره الذي (كان ـ كما قال الاستاذ العقاد ـ على ثلاثة اساليب اسلوب مرسل واسلوب فلسفي وأسلوب منتق يحتفل به احتفال المنشئين) .

وكان ابن سينا كثير الاعتناء بانشائه (٥) والتأنق في اسلوبه ومن امثلة انشائه البليغ قوله في رسالة القضاء والقدر .

[ما لي اراك غير ذي العهد الذي عهدته ، وغير ذي الالف الذي عرفته ، اراك زمر النشاط [٦] ذابل الورق ممصوص

(١) معجم ادباء الأطباء ص ٩٤

(٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٨

(٣) معجم ادباء الأطباء ص ١١٩

(٤) الشيخ الرئيس ص ٢٣

(٥) عن الشيخ الرئيس ص ١٣١

(٦) اي ضعيفه .

التي [٧] معقول الاسلة [٨] رائب النفس وأجم السحنة بعد عهدي بك ضرمة تلتهب ونبعاً تموج واعصاراً تصفف ، وشفرة هذاذة الضرب(٩)وجواداً غير مكبوح الجماح .

« فقلت كذلك للدهر ضربات اضياف (١٠) كانه ليكسو ثم ينضو ويخلع ثم يخلع والتغيير ديدنه ، والتبديل مجراه »

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد : « لم يسبقه سابق من اصحاب المقامات في حلبة التنميق والانشاء وربما اقصر بعضهم عن شأوه في جزالة اللفظ وفخامة العبارة »

ولما كان نثره لا ينقص عن شعره قوة وجمالا فكان المستحسن والاحسن ان يذكر الشيخ نبذاً من نثره كما ذكر نبذاً من شعره حتى تتم الفائدة

واغرب شيء صادفته في معجم الشيخ الخليلي هو ذكره ما ينقله من المصادر دون ان يبدي رأياً له على جله ، فمثلا نقل ما قاله جرجي زيدان في شأن خالد بن يزيد « ولكن العرب جدأوا بنقلها من ايام) بني امية وان لم يبق من نقلهم شيء يذكر واول من فعل ذلك هو خالد بن يزيد المتوفي سنة٨٥ هـ) (١١)

وبعد ان ينتهي من النقل لا يعلق ـ كما قلت ـ على ماقاله جرجي زيدان وهذا يبعث على ان نعتقد انه يوافقه فيما يقول والا فلم لا يعلق على قوله ؟!

قال العلامة لوكيرك في كتابه « تاريخ الطب العربي » (ينبغي ان نحسب مبدأ استفادة العرب من العلوم اليونانية تاريخ فتح مصر) وتاريخ فتح مصر قبل عهد خالد بن يزيد بسنوات والاستفادة من هذه العلوم لا يمكن ان تنال الا بعد ترجمتها الى العربية فاذن بدأت حركة الترجمة قبل عهد خالد لا كما يعتقده جرجي زيدان وغيره

ويقول الدكتور « فيليب حتي » في مؤلفه (١٢) « وكان اقدم ما اخرج للناس رسالة في الطب نقلها الى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني الفه كاهن مسيحي »

فاذن هنالك من هو اقدم من خالد في نقل الكتب ، ونحن نعد فتح مصر بداية الترجمة في العهد الاسلامي ؛ ويقول معالي الدكتور قاسم غني وزير معارف ايران الاسبق (١٣) « وفي مبدأ التأريخ ـــ يقصد تاريخ فتح مصر ـــ شرع رجل اسمه يحي النحوي » وهو من اصحاب عمرو بن العاص الذي يعتقده لوكيرك انه يوحنا فيليبونس وقد كان من قساوسة اليعقوبيين قبل اسلامه » في ترجمة الآثار اليونانية »

وذكر لنا « ابن النديم » (١٤) انه ترجم قسما من كتب جالينوس الطبية ، ويقول العلامة غوستاف لوبون في كتابه الثمين (١٥) « كان أول من ترجم من اللغة اليونانية رجل من العلماء يقال هرون وذلك في سنة ٦٨٥ م ... » وعلى ضوء ما مضى نعلم ونفهم ان ترجمة العلوم اليونانية بدأ قبل عهد خالد وان خالداً ليس اول من ترجم ؛ كما وافق الشيخ جرجي زيدان في ادعائه (١٦)

وقال الشيخ الخليلي(١٧) « ولد الدكتور شبلي في كفرشيما بلبنان سنة ١٨٥٠ م » غير ان المعروف عنه انه ولد عام١٨٦٠ كما بين ذلك ايضاً الاستاذ اسماعيل مظهر في مقاله عنه الذى نشره في مجلة « الكتاب » المصرية (١٨)

والفرق كبير بين ما يدعية الشيخ الخليلي وما هو معروف وقد قال الشيخ في كتابه انه مات وهو ابن ستين سنة ولكن ان اردنا ان نعتبر ولادته ـ كما اعتبر ـ في سنة ١٨٥٠ فيكون قد مات وهو ابن السبعين لانه توفي في سنة ١٨٦٠ ،

هذه بعض الملاحظات التي عنت لي فكتبتها ولي ملاحظات اخرى على الكتاب سأعود الى ذكرها قريباً في مجلة «البيان» الزاهرة

كربلا — صالح جواد الطعمة

(٧) العظام التي فيها المخ (٨) اسلة اللسان اي طرفه .
(٩) هذاذة : قطاعة (١٠) الأضياف : المختلفات .
(١١) ص ١٤١ من المعجم . (١٢) العرب ص ١٠٣

(١٣) مختصر تاريخ الطب الاسلامي مجلة الحضارة البغدادية عدد ٣٩ (١٤) الفهرست ص ٣٥٦ (١٥) التمدن الاسلامي للعلامة غوستاف لوبون ـ باللغة الفارسية ـ ص٦٠٩ (١٦) سبق وان ناقشت الدكتور حسن ابراهيم حسن ـ الاستاذ في كلية الآداب ومؤلف كتاب تاريخ الاسلام السياسي ـ الذى ادعى مثل ما ادعى جرجي في مجلة « الجزيرة » الموصلية عدد ١٢ من السنة الاولى (١٧) معجم اطباء الأطباء في ترجمة شبلي ص١٩٢
(١٨) الكتاب ج ١ السنة الثانية .